الفصل الثالث

الافتتاح بالدعاء في سورة المطففين

ثلاث سور في الذكر الحكيم افتتحن بالدعاء (المطففين ـ الهمزة ـ اللهب) لكل سورة موقع وسياق لمقصود ، وجاءت التراكيب في كل سورة فيها على مقتضى هذا المقصود ، وكان التشابه في الافتتاح مؤذنا بالعلاقة بينهن ، وكان التغاير في المقصود مؤذنا بتغاير معجم لغة السورة ، ونسق تراكيبها ، كما سيظهر في سورة المطففين إن شاء الله .

موقع المطففين في الكتاب العزيز :

نثر الذكر الحكيم معالم دالة على أن السورة جاءت امتدادا لما قبلها وتقديما لما بعدها ، فقد وقعت عقب سورة الانفطار ، وفي الانفطار : ﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ** ﴾ السورة الكريمة . ثم انتشر في سورة (المطففين) ذكر وصف كتاب الفجار ومآلهم ، وذكر وصف كتاب الأبرار وثوابهم ، كأنها جاءت تفصيلا لقوله في الانفطار : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ**

﴿ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ ، فلقد أشعر سياق الانفطار أن الحفظة تسجل دقائق الأعمال وجلائلها لا يضيع منها شيء ، حتى ولو كان طفيفا ، وسورة الانفطار لها موقع لطيف من سورة التكوير ،كأنهما بترتيب الأهوال، فلقد افتتحت التكوير بذكر أهوال الأجرام تحت السماء ، وافتتحت الانفطار بذكر أهوال السماء ، وينتهى آخرها بذكر يوم الدين ، ويجيء اليوم موصوفا في المطففين بقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لوصف يوم الدينونة ، وهكذا ترى السورة نورا مما قبلها ونورا لما بعدها .

ترى في الانفطار : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ وترى في التكوير : ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾ وترى في المطففين وصفا لما وعى ما قدمته النفس وما أخرته وما أحضرته ، يقول ابن الزبير ـ رحمه الله ـ في سورة الانفطار «هذه السورة كأنها من تمام سورة التكوير ، لاتحاد المقصد فاتصالها بها واضح»[1] ومن قبل سورة التكوير نرى سورة عبس ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ ترى امتداد هذه الآى في قوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

وترى في عبس قوله : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ وترى التكوير والانفطار قد عنيتا بشرح دلائل الصاخة ،ومن قبل سورة عبس ترى سورة النازعات ، وهي مفتتحة بالقسم بملائكة نزع الروح ، وفيها ذكر الطامة ، فأنت ترى أنساق السور جاءت على وفق سورة النبأ المفتتحة باستفهام تعجبي من إنكار الكفار البعث محل دينونة العباد : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ وترى المرسلات في افتتاحها بذكر ملائكة نشر الأرواح بقرينة

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص٢٢٣ .

ذكر يوم الفصل في السورة ، فما قبله من الآيات تقديم له ، أو أنها الرياح التي تنشر الأمطار كما حكاه أهل العلم[1] وفيها ذكر يوم الفصل ، ومن قبلها سورة الإنسان وهي مفتتحة بذكر حال الإنسان قبل الخلق الأول ، وفيه إلاحة بالاستدلال على البعث ، ومن قبل الإنسان سورة القيامة : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ وكل ذلك إنذار : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ .

وترى خيوط يوم الدين سابقة على سورة المطففين : ﴿ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴾ (المرسلات:١٢ ، ١٣) . وبعدها يتكرر قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ تكرارًا لا نظير له في السورة الكريمة ، ثم تأمل في النبأ : ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴾ (النبأ:١٧) ويوم الفصل بعد الطامة والصاخة وهو يجيء ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ .

وتختم الانفطار بما ذكرناه من أوصاف يوم الدين ، ثم يذكر يوم الدين في المطففين ، ويتوعد بالويل للمكذبين على وجه ينبه إلى ترقي سياق الذكر الحكيم ، فهو هناك في المرسلات يذكر يوم الفصل ، ثم يعقب بعده بالتوعد للمكذبين ، ثم يذكر النعم ثم يتوعد ، ثم يذكر اختلافهم في البعث في سورة النبأ ، أما في المطففين فقد جاء باستفهام تعجبي قبل ذكر يوم الدين فقال : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ ولأن السياق قد عني بذكر يوم الفصل والبعث من المرسلات إلى هنا ، قدم توعدهم بالويل على ذكر يوم الدين ، الذي هو يوم الفصل ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وهكذا ترى خيوط كل سورة ممتدة امتدادا طويلا ، ويقيني أنها تمتد إلى فاتحة الكتاب أم القرآن كما قال سيدي رسول الله ﷺ

(١) راجع : الكشاف ٢٠٢/٤، وابن كثير ٤٥٩/٤، والصاوى ٢٢٧/٤ .

فتوضع تحت قوله : ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يستكشف ذلك كل بصير بأساليب العرب .

هذه حاشية ما تفهمناه من كلام أهل العلم من أن السورة امتداد لما قبلها ، أما أنها تقديم لما بعدها ، فذلك أمر ظاهر قاهر أيضا لما نثره الذكر الحكيم من الأساليب المتقاربة في السور المتجاورة ، فقد عنيت المطففين بوصف كتابي الأبرار والفجار وتأمل تراكيب الانشقاق ينبهنا إلى خيوطها بالمطففين ، تأمل قوله في الانشقاق ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ﴾ ثم ينعي على من أوتي كتابه وراء ظهره بقوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴾ ألست تراه من نور قوله بعد وصف نعيم الأبرار في المطففين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ وما ضحكوا منهم ولا تغامزوا عليهم ، ولا تلذذوا بذلك من المؤمنين إلا لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد كأصحاب الأخدود ، وكل محاسب على فعله في اليوم الموعود .

وتتبع خيط بياني واحد في أي سورة واستبصاره إلى طرفيه[1] أمر بعيد إلا أنه مطمح عظيم ، يفضي يقينا إلى أن القرآن سورة واحدة تشكل كل سورة فيه غرضا تتناسق هذه الأغراض جميعا ، فتؤدي غرض السورة الكبرى ، وكل سورة تحوي آيات تمثل غرضا وضع على نسق غرض السورة ، وهكذا الكلمة في الآية والحرف في الكلمة ، وكل فساد يرتكب في حق حرف في الكلمة يؤدي إلى فساد في فقه الغرض الأعظم للقرآن

(١) ربما ينتصر لذلك بما يتبعه بعض القراء من الاكتفاء ببسملة واحدة حين الافتتاح في القراءة إلى نهايتها وإن تعددت السور المقروءة .

الكريم . وقد نثر الذكر الحكيم ما يدل لذلك كما حاولنا استبيان شيء منه في موقع السورة الكريمة من سياق الذكر الحكيم .

وموقع لطيف للسورة يذكره السيوطي ـ رحمه الله ـ وكم في كتاب ربنا ـ عز وجل ـ من لطائف . فقد نبه إلى استشكال في موقع السورة إذ وقعت بين سور مفتتحة بالشرط (التكوير ـ الانفطار ـ الانشقاق) وهي تتشاكل من خمسة أوجه (١) الافتتاح (٢) التخلص بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ ﴾ في الانفطار والانشقاق (٣) شرح حال يوم القيامة (٤) التناسب في المقدار (٥) كونها مكية .

وقد أبصر ـ رحمه الله ـ أنه مع هذا التشاكل إلا أن السورة وقعت كذلك مناسبة مع ترتيب أحوال يوم القيامة ، فغالب ما وقع في التكوير ، وجميع ما وقع في الانفطار وقع في صدر يوم القيامة بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، فذكره في هذه السورة بقوله : ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى فتنتشر الكتب ووجه آخر : وهو أنه ـ جل جلاله ـ لما قال في الانفطار : ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴾ وذلك في الدنيا ذكر في هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان ، وهو كتاب مرقوم ، والذي في الانشقاق هو آخر أحوال كتاب كل مناسب تأخيرها[1].

ومما يجعلك تزداد بصرا بموقع سورة الانشقاق من سورة المطففين أن تستقرئ ما جاء في الذكر الحكيم من إتيان الكتاب باليمين أو بالشمال ، خذ مثلا ما جاء في الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ . . . ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ وضعه موضع ما جاء في الانشقاق نظيره ، ألا تراه ـ إن وضعته ـ

(١) تناسق الدرر بتصرف ص١٤٧ وما بعدها .

متعاندا مع ما جاء في المطففين : ﴿ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ والموضوع في الموقعين : (الحاقة والانشقاق) واحد في ذكر الكتاب ، إلا أن تغاير الموقع أدى إلى تغاير الأسلوب ، تلك كلمة في موقع المطففين تنبهنا إلى استكشاف دقائق تراكيبها ، وقد ظهر مما مضى اشتباه أسلوبها بما قبلها وما بعدها ويظهر فيما يأتي ـ إن شاء الله ـ تميزها بأسلوب وفقا لتميزها بمقصود .

مقصود السورة :

وللعلماء طرائق في استخراج المقصود الذي نسج تراكيب السورة ، فهم يستخرجونه من تسميتها ، ومن أغراض آيها ، من موقعها . وقد جاء مقصودها في كلام ابن الزبير على مناسبتها لما قبلها فقال : « ولما قال سبحانه ـ في سورة الانفطار ـ ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ وكان مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت عمل كما قال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ . . . ﴾ [تأمل فإن عينه على أول المطففين ، وما يدل عليه معنى التطفيف من ضآلة العمل ، وعلى ما تشعره كثرة المؤكدات في آية الانفطار] أتبع الآية المتقدم بجزاء من عمل عملا يتوهم فيه قرب المرتكب ، وهو من أكبر الجرائم ، وذلك التطفيف في المكيال والميزان والانحراف عن إقامة القسط في ذلك فقال تعالى : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴾ » ثم يتكلم عن بقية السورة ليكشف لنا سبيل البيان عن المقصود ، وليحدد لنا المطلع كما سيأتي الكلام عليه بعد .

ثم أردف بتهديدهم وتشديد وعيدهم ، فقال تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴾ ثم التحمت الآي مناسبة لما افتتحت به السورة إلى

ختامها»[1] وهذه كلمة نفيسة جدا تنبهنا إلى تحديد مطلع السورة ، ومقصودها وسبيل البيان عنه ، ومهمتنا شرح كلمته ثم التحمت الآي . . . إلى آخر ما قال ـ رحمه الله .

وينظر البقاعي إلى اسم السورة ومناسبتها بما قبلها ليستخرج مقصودها فيقول : «ومقصودها شرح آخر الانفطار بأنه لابد من دينونة العباد يوم التناد ، بإسكان الأولياء أهل الرشاد دار النعيم ، والأشقياء أهل الضلال والعناد دار الجحيم ، ودل على ذلك بأنه مربيهم والمحسن إليهم بعموم النعمة ، ولا يتخيل عاقل أن أحدا يربي أحدا من غيرسؤاله عما حمله إياه وكلفه به ، واسمها التطفيف أدل ما فيها على ذلك»[2] .

ولنا أن نقول : ـ تلفيقا من كلامهما ـ إن مقصود السورة دينونة العباد على جزئيات الأعمال ـ فقولنا جزئيات الأعمال ناظر إلى جملة المطلع التي لا نظير لها في الذكر الحكيم . وقولنا دينونة ناظم كل ما جاء في السورة من ذكر صفات كتابي الأبرار والفجار وعاقبة كل . وذلك شائع في الكتاب العزيز ، إلا أن استبصار أساليبه منظرة بأساليب نظائره يكشف عن علاقته بالمطلع ، كما سيظهر إن شاء الله .

مطلع السورة الكريمة :

أولا : مقداره :

الذي يظهر لنا من كلام ابن الزبير أن مطلع السورة الكريمة هو الجملة النحوية الأولى : ﴿ **وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ** ﴾ والملحوظ أنه لم يذكر الجملتين التابعتين للمطلع ﴿ **إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ**

(١) البرهان في تناسب سور القرآن ص٢٢٤ وما بين المعكوفين زيادة مِنِّى .
(٢) مصاعد النظر ١٦٨/٣ .

﴿ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ وهما صفتان (للمطففين) كاشفتان عن مضرة ، ما يبدو في أعين العالمين جزئيا صغيرا (التطفيف) فهل كان يمكن أن يقال : ويل للمطففين ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لا ريب أنه كلام مغسول . أو كان يمكن أن يقال : ويل للذين إذا اكتالوا على الناس؟ وكان ذلك أوجز وأخصر مما جاء به الذكر الحكيم ، الحق أن الأمرين غير ممكنين ، وذلك لأن الجملتين التابعتين مهدتا لسبيل البيان عن السورة كما سيأتي . وأن خبر المبتدأ (المطففين) أملى سمتا خاصا بالسورة لما جاء متناسبا مع المبتدأ ﴿ وَيۡلٌ ﴾ فلو سقط هذا اللفظ لسقط تناسق السورة كما سيأتي أيضا فالمطلع هو الجملة الأولى والجملتان تابعتان له . فهما نور لخبر المبتدأ في المطلع ، وتقديم بين يدي سياق السورة .

مفرداته :

دأب الذكر الحكيم تفرد كل سورة بمفردات لم ترد في غيرها كذلك مطالعها والذي جاء في المطلع ولم يرد في غير السورة (المطففين) والذي جاء في الآيتين بعده ﴿ ٱكۡتَالُواْ ﴾ . . . ﴿ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ . . . ﴿ كَالُوهُمۡ ﴾ . . . ﴿ وَّزَنُوهُمۡ ﴾ والذكر الحكيم يشير بالألفاظ التي تنفرد بها المطالع والسور إلى تفرد كل مساق بغرض ، والنصح لكتاب الله قاض باستكناه معاني هذه المفردات ، إذ هي معالم المساق الخاص والغرض الخاص ، وما اشتركت فيه السورة بعد ذلك من المفردات جاء متوسما سيما هذه المفردات لمجيئه في نسقها ، فهل أضفى لفظ (المطففين) على لفظ الويل دلالة سياقية امتاز بها بموقعه ذلك في دلالته في سورة الهمزة أو سورة المرسلات؟ ذلك ما نستهدي الله في كشفه وإبصاره .

الويل قد جاء في الذكر الحكيم لأصناف منها (المكذبين)، و(المطففين) (الهمزة اللمزة) وللويل عند أهل العلم معان ، فقد قيل : إنه شدة النكر ، وقيل : العذاب الأليم ، وقيل : واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا ، وأرجو أن يكونوا ناظرين إلى ما تفردت به السورة من قوله : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴾ فإن فيه معنى التسفل أو هو كلمة تذكر عند وقوع البلاء . يقال : ويل لك وويل عليك أو أنه واد في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار كما قال ابن عباس ـ رحمه الله ـ أو أنها كلمة يطلب بها العذاب ويدعى بها ، وعليه فالجملة إنشائية ، وتوجيه ذلك مع كونه ـ سبحانه ـ خالق الأفعال كلها أنه طالب من نفسه إلحاق الويل لهم ، إظهارا لآثار غضبه أو هي كلمة دعاء بسوء الحال ، وهو في القرآن وعيد بالعقاب وتقريع ، أو معناها هلاك لهم عظيم ونكال ينتظرهم[1]. وأحسب أن تلك المعاني جميعا ممكنة وأجمعها المعنى الأخير[2]. ويكون تسمية الوادي بها ضمن هذا المعني ، فيكون تسمية الوادي به من شدة الهلاك الذي يقع فيه ، وليس في سياق موقع هذه الكلمة في الذكر الحكيم ما يمنع أيا من هذه المعاني . فهي كلمة مبهمة تعني الهلاك العظيم ، ويعني السياق في كل موقع بتفسير

---

(١) راجع في ذلك القرطبي ٧٢٨٦/١٠، ومفاتيح الغيب ٤٩٦/٨، وأبو السعود ٤٩٦/٨، والصاوي ٣٤٩/٤، والفتوحات الإلهية ٥٠١/٤، وجزء عم للإمام محمد عبده ص٣٢، والتحرير والتنوير ١٨٩/٣ .

(٢) قد نبهنا إلى ذلك استقراء مقالات الأئمة لمعاني هذا اللفظ في القرآن الكريم ، وتنبهنا إلى أن لهذا اللفظ دلالة خاصة في كل سياق . يقول سفيان وعطاء ابن يسار في آية البقرة ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ «الويل في هذه الآية واد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار» القرطبي ٥٠٨/١ تدبر قولهما في هذه الآية فإنه قول نفيس جدا .

هذا الهلاك ، على وجه من الأسلوب مناسب للجرم المنهي عنه فالسياق في كل موقع هو الذي يفسرها . هذا ما ذكرت من أن للألفاظ المشتركة دلالات سياقية ، لكل موقع أثره على الدلالة الأصلية .

يقول ابن عاشور في موقع هذا اللفظ في صدر السورة : « وافتتاح السورة باسم الويل مؤذن بأنها تشتمل على وعيد ، فلفظ (ويل) من براعة الاستهلال »[1] وهو كذلك في الهمزة أيضا إلا أن الويل هاهنا يتناسب مع التطفيف ، والويل هناك يتناسب مع الهمزة اللمزة ، وهو ما استقر لدى أهل العلم . يقول ابن المنير ـ رحمه الله ـ « وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة ، فإنه لما وسمه بهذه السمة بصنيعه أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه ، أتبع المبالغة لوعيده التي سماها (بالحطمة) لما يلقى فيها ، وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء ، فهذا الذي ضرى بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضارية يحطم كل ما يلقى إليها »[2] . . . والأمر بعد في كشف التعادل بين التطفيف وبين ما جاء من وعيد في السورة الكريمة .

ومن قبل قال جار الله في سورة اللهب في معنى قوله : ﴿ **وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ** ﴾ « ويحتمل أن يكون المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع ، وفي جيدها حبل من مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه »[3].

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٩/٣ .

(٢) الانتصاف ٢٨٣/٤، ٢٨٤ .

(٣) الكشاف ٣٩٧/٤ .

وتصدير سورتي المطففين والهمزة بلفظ «الويل» ألاح إلى تشابه بين السورتين الفعلان «التطفيف والهمز واللمز» في أعين العالمين ضئيلان ، وقد وعد الله فاعليهما بالويل ، وويل الهماز اللماز غير ويل المطفف ، والجامع بينهما جامع للويلين ، ومستوجب هذين العذابين ، إلا أن القرآن يدلنا على أن الموصوف بأحدهما موصوف بالآخر تأمل : ﴿ **ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ** ﴾ أي لا يبالي من أي وجه جمعه بتطفيف أو غيره ، ثم تأمل ما في المطففين حين النعي على الفجار ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** ﴾ أليس هو من نور قوله : ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾؟ إن أنساق المطالع إذا تقاربت فإن أنساق السورة تتقارب تبعا لتقارب المطلع ، والأمر كما رأيت .

لعل الأمر قد استقر ـ نظريا ـ أن الويل جاء في السورة متناسبا مع المطففين فهذا اللفظ هو قطب استكشاف التناسب في تراكيب السورة ومفرداتها وهو من (طف) و «الطفيف الشيء النزر ، ومنه الطفافة لما لا يعتد به ، وطفف الكيل قلل نصيب المكيل له في إيفائه واستيفائه»[1].

«وقد روى عن ابن عمر أنه قال : المطفف الرجل يستأجر المكيال ، وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزره عليه ، وقال آخرون : التطفيف في الكيل والوزن والوضوء والصلاة والحديث ، وفي الموطأ قال مالك : ويقال : لكل شيء وفاء وتطفيف ، وروي عن سالم بن أبى الجعد قال : الصلاة بمكيال ، فمن أوفى أوفى له ، ومن طفف فقد علمتم ما قال الله ـ عز وجل ـ في ذلك ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ** ﴾ قال أهل اللغة : المطفف مأخوذ من

(١) المفردات : (طفّ) ص٣٠٥ .

الطفيف وهو القليل ، وقال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف»[1].

والذي جاء بهذا المعنى في الموطأ يتناسب مع كثير بين آي السورة الكريمة لا سيما في وصفهم بالفجار ، وفي الإنكار عليهم بقوله : ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ** ﴾ وقوله : ﴿ **وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ وما بعده ، وقد اشتملت السورة الكريمة على آيات جرت سنة القرآن الكريم باستخدامها في حق الكفار مثل قوله : ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا** ﴾ وقوله : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ** ﴾ وما بعدها . وما ختمت به السورة من قوله : ﴿ **هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ** ﴾ مما حمل أهل العلم على اختلاف في الخطاب بمطلع السورة أهو عام يشمل المؤمنين وغيرهم أم هو خاص بالكفار قال الفخر : ـ يرحمه الله ـ «واحتج أصحاب الوعيد بعموم هذه الآية قالوا : وهذه الآية واردة في أهل الصلاة لا في الكفار ، والذي يدل عليه وجهان **الأول :** أنه لو كان كافرا ، لكان ذلك الكفر أولى باقتضاء هذا الويل من التطفيف ، فلم يكن للتطفيف أثر في هذا الويل ، لكن الآية دالة على أن الموجب لهذا الويل هو التطفيف ، **الثاني :** أنه تعالى قال للمخاطبين بهذه الآية ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ** . . .﴾ فكأنه تعالى هدد المطففين بعذاب يوم القيامة ، والتهديد بهذا لا يحصل إلا مع المؤمن ، فثبت بهذين الوجهين أن هذا الوعيد مختص بأهل الصلاة»[2] . ومع أن القضية قضية كلامية إلا أنك رأيت أن المستند الأول هو آيات السورة مقارنة بمطلعها ، على أنه يمكن أن يقال تبعا لما

---

(١) راجع : الجامع لأحكام القرآن ٧٢٨٧/١٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٤٩٧/٨ .

مضى من عموم معنى التطفيف ، كل شيء يمكن أن يقال إن ذلك مما يشعر به أسلوب المطلع حيث لم يكتف بقوله : (ويل للذين إذا اكتالوا ...) وتكون الجملتان التابعتان للمطلع تخصيصا بعد التعميم الذي أشعر به اللفظ الأول ، وتكون فائدة هذا التخصيص جارية على سنن المقصود الذي هو دينونة العباد على جزئيات الأعمال والمحاسبة على حقوق العباد وإن كانت طفيفة ، وإذا ما قرنَّا بيان السنة ببيان القرآن استبان لنا أنه ما من مطفف في الكيل والميزان إلا وهو مطفف في كل شيء ، إلا أن المشتهر بين الناس التطفيف في الكيل والميزان ، وقد استشعر أهل العلم خسة المطفف من دلالة هذا اللفظ .

فقد ذكروا أيضا «أن التطفيف وهو البخس في المكيال بالشيء القليل على سبيل الخفية ، وذلك لأن الكثير يظهر فيمنع منه ، وذلك القليل إن ظهر أيضا منع منه ، فعلمنا أن التطفيف هو البخس في المكيال والميزان بالشيء القليل على سبيل الخفية»[1]. كأنهم لا يؤمنون باطلاع الله عليهم ، فهم يحرصون على عدم إبداء صنيعهم ولذلك دلالة على أمرين على اجتهادهم في إخفاء ذلك ، وعلى ضآلته وقلته جدا بحيث لا يظهر ، وتلك خسة في الطباع يستمرئها خسيس الطباع في كل شيء «لأنه يطلب الغنى بشيء طفيف»[2] ليرتفع بهذا الغنى ذكره ، ولدلالة هذا اللفظ نميمة أخرى تعود إلى فاعليه ، هي أنهم لا يظنون أن الله يأبه به أو يحاسب عليه ، وإنما هو عند الله عظيم . وقد جاءت آية في السورة الكريمة لم ترد في سواها تقابلا مع دلالة هذا اللفظ هي قوله : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا

(١) مفاتيح الغيب ٨/٤٩٦ .

(٢) جزء عم ص٣٢ .

﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ كما شرحته السنة المطهرة . فبهذا اللفظ نم القرآن عن فاعلي التطفيف . وجاءت تراكيب السورة متقابلة مع جرمهم ، فبالإضافة إلى ما مضى من دلالة اللفظ ، فإنه يوحي أيضا بأنه قليل لغاية يغيب ظهورها على الحفظة في زعمهم ، لذا جاء وصف للكتاب لا يوجد في سورة أخرى ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ وكانوا يطلبون الرفعة بالنزر اليسير فعوقبوا بالخسة والتسفل ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ وظنوا أن ذلك الفعل القليل لا يؤثر في القلوب فذكرت السورة أن تكرر هذا الفعل واكتسابه ينسج على قلبهم الران . وما أجلى بيان السنة المطهرة في هذا الموضع : « إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، وذاك الران الذي ذكر الله في القرآن »[1].

وتأمل في تركيب الآية فلو قال : كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يفعلون أو يعملون أو يرتكبون أو ما شئت لما تناسب مع المطلع ، وذلك لأمر ظاهر هو أن التطفيف من الكسب ، والكسب حسي يفعل كالتطفيف ، فذلك حسي مادي وكسب معنوي هو كسب المعاصي ، فتراكم التطفيف يزيد من الغنى في نظر المطففين ـ وتراكم الران يحجب القلب عن الإيمان ، وكل يبدأ طفيفا .

وكما جاءت آيات وعيد المطففين مقابلة مع فعلهم ، كذلك جاءت آيات ثواب الأبرار متقابلة مع آيات وعيد المطففين ، فاشتملت السورة على آيات وتراكيب في الوعيد والوعد لم توجد في سورة أخرى ، وكل جاء متناسبا مع لفظ المطففين في مطلع السورة الكريمة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٥ .

أما ﴿ ٱكْتَالُواْ ﴾ و ﴿ كَالُوهُمْ ﴾ فدلالتهما ظاهرة ، والأولى صيغة مزيدة والثانية صيغة مجردة ، وذلك إلماح إلى جورهم بالزيادة في الكيل في الأولى ، والإنقاص في الثانية ، أو بيعه دون زيادة وتناسب ﴿ يَسْتَوْفُونَ ﴾ مع ﴿ ٱكْتَالُواْ ﴾ ظاهر جدا فإنهم عندما يشترون يطلبون الاستيفاء ، ويجتهدون في طلبه حتى يأخذوه زائدا لا يكتفون به مستوفي غير منقوص ، وهناك دلالات لا حد لها لهذه الألفاظ في نسقها .

أحوال تراكيبه :

آية المطلع عند ابن عاشور « تؤذن بأن التطفيف كان متفشيا في المدينة في أول مدة الهجرة ، واختلاط المسلمين بالمنافقين يسبب ذلك »[1] .

وذلك تبعا لما استحسنه من أنها نزلت بين مكة والمدينة ، والتطفيف كان فاشيا بين البلدين[2] . ما الذي في أسلوب المطلع حتى كانت له هذه الدلالة عند ابن عاشور الذي يظهر أنها عدة أمور هي تقديم الويل ، على مذهب الإمام عبد القاهر في استخراج دلالات تقديم ما ليس حقه التأخير ، فليس شافيا أن يقال قدم لأن حقه التقديم ، فإلقاء الويل قبل الجرم في صدر السورة ، مما يؤذن بتفشي الجرم الوارد بعده ، ولموقع الويل وفرة في الدلالة ، فإن قصد به الدعاء فالجملة إنشائية معنى خبرية لفظا ، وصوغها بالأسلوب الخبري ، يكتنزُ فيضا من المعاني ، فالأسلوب الإنشائي الطلبي يكون لأمر غير محقق أما أسلوب الخبر فعلى غير هذا الوجه ، فقولك : (ارحم اللهم زيدا) دعاء منك لزيد بالرحمة ، وقولك : رحم الله زيدا دعاء منك له بالرحمة أيضا ، ولكن الرغبة هنا أكثر إلحاحا

(١) التحرير والتنوير ٣٠/١٩٠ .
(٢) انظر السابق ٣٠/١٨٧ .

وأشد تعلقا بالنفس ، وكأنها لقوة إحاطتها بالقلب أوهمت أنها وقعت وأن الله قد ناله برحمته وأتت تخبر عن هذا . قال البلاغيون في هذا : إن النفس إذا عظمت رغبتها في شيء تخيلت غير الواقع واقعا ، وبنت الكلام على هذا التخيل وأجرته على نسيجه[1].

ودلالة هذه الصياغة في هذا الموقع من الكتاب العزيز تومئ إلى إحاطة غضب الله بهم ، ونسج الأسلوب على طريقة الأمر الواقع ، وإنما كان ذلك لما تشعر به اسمية الجملة من استمرارهم وثبوتهم على هذا الفعل حتى أصبح وصفا لهم ، ومجيء الجملة مع أن الهلاك لما يقع وأن أفئدتهم لم تؤمن به ـ على ضرب من أضرب جملة الخبر (الابتدائي) يأتي فيما لا يتوقع فيه إنكار منكر ولا تردد متردد ، وذلك ظاهر الدلالة على تفشي التطفيف ، وهو مؤيد ـ بعد هذه القرائن الأسلوبية ـ بقرائن خارجية منها ما جاء في سبب النزول «عن ابن عباس أنه قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك»[2] . ومما ذكر القرطبي من أنه «كان بالمدينة تجار يطففون وكانت بياعاتهم تشبه القمار والمنابذة والمخاطرة فأنزل الله تعالى هذه الآية فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق وقرأها»[3] . بل ذكروا أن «أبا جهينة كان له صاعان يكيل بأحدهما ويكال له بالآخر»[4].

---

(١) دلالات التراكيب ص٢٢٦، ٢٦٧ .

(٢) أسباب النزول ص٣٣٣ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧٢٨٦/١٠ وما بعدها بتصرف .

(٤) أسباب النزول ص٣٣٣ .

ولو قال الذكر الحكيم : ويل للذين يطففون ، لما كانت هذه الدلالة ، وإنما كان ذلك دالا على تجدد ذلك منهم وحدوثه ، وهو يعني بالضرورة أنهم كانوا ينقطعون أحيانا عن الحدث ، وذلك غير وارد على جملة نسيج المطلع ، ولو جاء كذلك مع تقديم الويل ، لتنافى مع ما يعلمه الذكر الحكيم من سعة رحمة الله .

ألا ترى أنه صاغ الهمز واللمز على صيغة مبالغة وفقا لتقديمه الويل ، حتى يؤذن ذلك بتفشي الهمز واللمز ويل لكل همزة لمزة؟ أليس جائزا أن يقال : ويل للذين يهمزون أو غير ذلك . ولعلك تذكر قول العلماء في توجيه الدعاء من الله على المطففين والهمازين اللمازين ، بأنه جاء كذلك إظهارا لآثار غضبه[1] سبحانه .

تأمل إلى أي غاية كان التطفيف فاشيا ، حتى اقتضى ذلك مجيء الدعاء على صيغة الخبر ، وماذا ترى أنت في قول العلماء إنه دعاء صيغ صياغة الخبر ، وقول طائفة أخرى إنها جملة خبرية لفظية ومعنى على وجوه المعاني التي ذكروها للويل ، لا ريب جاءت الأساليب في السورة مؤيدة لكل ، فآيات الوعيد في السورة لما تقع أترى سائغا أن يقال : أهلك اللهم المطففين الذين إذا اكتالوا . . أترى له موقعا في الزجر عن التطفيف كالذي جاء الذكر الحكيم على سنته ، إن من بيده العذاب والهلاك هو الذي يقول لا يثنيه عن ذلك أحد ، فكأنه قد وقع وسار مسير الشيء يخبره ، وهذا التوجيه يجعل كلام العلماء متجاورا غير متناقض ، ولعل الذين قالوا

---

(١) يقول سيبويه في هذا الموضع «فإنه لا ينبغي أن تقول إنه دعاء ههنا لأن الكلام بذلك قبيح واللفظ به قبيح . ولكن العباد وإنما كلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون» الكتاب ٣٣١/١ وهو مانع كلامي لا لغوي .

إن الجملة الخبرية لفظا ومعنى جدوا في الفرار من الاستشكال الذي يظهر من الآيات التي لم تقع شأن آيات اليوم الآخر في الذكر الحكيم ، ولو صيغ المطلع بأسلوب إنشائي لفظا ومعنى لما كان الأمر كذلك ، والمهم أن تكون على ذكر من الويل في المطلع جاء معقودا بالتطفيف الذي كان متفشيا كما قرر الأسلوب مع ضميمة سبب النزول ـ وأن السورة فسرت الويل بما يعقده بالتطفيف كما سيأتي : قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ . . .﴾ «صفة كاشفة للمطففين شارحة لكيفية تطفيفهم الذي استحقوا به الندم والدعاء بالويل»[1] أو هي مخصصة بعد تعميم وشارحة مضرة التطفيف[2] والملحوظ أنه قدم الوصف الألصق بالمعنى اللغوي للتطفيف فليس سائغا أن يقال : الذين إذا كالوا الناس أو وزنوهم يخسرون ، وإذا اكتالوا عليهم يستوفون . مع ضميمة أن ذلك يصور حرصهم على الغنى بالنذر اليسير من المال ، وذلك له دلالته في إظهار حرصهم خسيستهم ، ولو قدم الوصف الثاني : ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ... ﴾ لكان تصويرا لحرصهم على الإنقاص ، وله دلالته في إظهار حرصهم على الغنى بالنذر اليسير أيضا ، إلا أن تقديم الوصف الأول مناسب لبيان حرصهم على طفافة الكيل حين الاستيفاء .

وقد ذكر العلماء نكات لاستبدال (اكتالوا من) بـ (اكتالوا على) عقدت التركيب بغرض السورة الكريمة ، فقد ذكروا أنه وقع كذلك لبيان أنه اكتيال فيه تحامل على الناس واستيلاء ، وهو له أثره في كشف ما يعد في أعين فاعليه طفيفا ، ففيه بيان عن إلقاء المشقة على الغير وظلمه ، وهذا التوجيه أوقع مما ذكر الفراء من أن مِنْ وعَلَى يتعاقبان في هذا الموضع ،

(١) إرشاد العقل السليم ٤٩٦/٨ .

(٢) راجع : روح المعاني ٦٨/٣٠ .

فإذا جاء بعلى دل على أن ما يأخذونه حق من الناس يستوفونه[1] لأنه حينئذ يتعاند مع السياق الجاري في ذم المطففين . فليس المستوفي حقه مذموما عند الله أو عند الناس . . . إلا أن الذم ملحوظ في المطلع بإعادة النظر وكأن القرآن الكريم لو جاء بمن لما دل على التحامل والغبن والإضرار ، كما قال بعض أهل العلم ، لأنه في الجانب الثاني (الإيفاء) صرح بالإخسار ـ والأول (الاستيفاء) متقابل معه فهو يوحي بالتحامل ، لأن السياق قاض بذمهم في الجانبين[2] .

ولموقع ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ نكتة لطيفة ، فهو إما أن يتعلق باكتالوا ، وإما أن يتعلق بيستوفون وتعلقه بيستوفون جار في مقصود السورة. قال جار الله: ويجوز أن يتعلق على بيستوفون ، ويقدم المفعول على الفعل ، لإفادة الخصوصية أى يستوفون على الناس خاصة ، فأما أنفسهم فيستوفون لها[3] فهو له دلالة تساند ما تدل عليه (على) من التحامل والجور .

ومساق الكلام هو الذي اقتضى حذف المفعول به وذلك لأن الاهتمام متوجه نحو الفعل لا المفعول قال أبو السعود : معللا لحذف المفعول به لأن مساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء لا في خصوصية المأخوذ والمعطى[4] .

---

(١) راجع : البيضاوي ٥٤٥/٢، والقرطبي ٧٢٨٨/١٠، والشهاب على البيضاوي ٣٥٥/٨، وإرشاد العقل السليم ٤٦٩/٨، والتحرير والتنوير ١٩٠/٣٠، ١٩١، وجزء عم ص٣١ .

(٢) راجع : من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم الأستاذ الدكتور محمد الأمين الخضرى ص٩٤ وما بعدها بتصرف .

(٣) الكشاف ٢٣٠/٤ .

(٤) إرشاد العقل السليم ٤٩٩/٨ .

وكان جار الله ناظرا إلى المطلع الذي يشعر بالذم في تعليله لذكر المكيل دون الموزون في الآية الثانية فقال : « فإن قلت : هلا قيل : أو اتزنوا كما قيل أو وزنوهم قلت : كأن المطففين كانوا لا يأخذون ما يكال ويزن إلا بالمكاييل دون الموازين لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة ، لأنهم يدعدعون ويحتالون في الملء»[1] . . لا ريب قد استشعر جار الله هذه النكة من المطلع . ومن أسلوب الآية . تدبر قوله : كأن المطففين . . فليس قوله مستندا إلى خبر جاء ، وإنما قوله حكاية دلالة أسلوب وظاهر ذلك في عدم ذكر المكيل ، واستبدال من بعلى كما مضى بيانه ، وكل ذلك جار في ذم المطففين ، وتوهمهم فوات الدينونة على التطفيف ، ونكتته عند ابن عاشور أنه « جاء كذلك لقلة دوران اتزنوا في الكلام ، وليس بذلك فالقرآن به كثير من الألفاظ النادر دورانها كمثل (ضيزى) وغيره ، أو أنه جاء كذلك لأنهم كانوا يأخذون السلع من الجالبين بالكيل فجرى على الغالب ثم قال : وذكر في بيعهم للمبتاعين الكيل والوزن لأنهم يبيعون الأشياء كيلا ، ويقبضون الأثمان وزنا »[2] .

وجاء فعل يستوفون متناسبا مع هذا التركيب على اجتهادهم في الاستيفاء فالسين والتاء يدلان على الطلب .

والملحوظ أن القيد (إذا) جاء في الموضعين ، وذلك على تحقق الشرط والجزاء في الموضعين ، وذلك متناسب جدا مع آية المطلع المصدرة بالويل ، والدالة على الاستمرار والدوام ، فلو جاء بأن بدل (إذا) لتناقض ما قبلها ، لدلالتها على قلة تحقق الشرط بعدها ، ولو على الغالب عند المنازعة في هذا التفريق بين دلالة الأداتين عند البلاغيين .

---

(١) الكشاف ٤/٢٣١ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٣٠/١٩١ .

وفي الوصف الثاني ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ . . .﴾ مفارقات دقيقة تجري في سياق المقصود وتتناسق مع المطلع . فإن ﴿ كَالُوهُمْ ﴾ تعدى بنفسها ، وتتعدى باللام ، أو أنه حذف الجار ، وأوصل الفعل سنة أهل الحجاز ، أو أن في الأسلوب مضافا محذوفا أقيم المضاف إليه مقامه ، أو أن الضمير بين في كالوهم ووزنوهم توكيد للضميرين في كالوهم ووزنوا[1] . وهذه التخريجات عند القول بأنها لا تتعدى بنفسها ، والأمر في مجيئها على هذا الوجه ، وقد ألمع بعض أهل العلم إلى لطيفة هذا الموضع فقال : « على أنني أحس فوق ذلك لتعدية الفعل كالوا بنفسه دون اللام . . واختصاص هذه الصيغة المجردة من الزيادة في مقابلة ﴿ ٱكْتَالُواْ ﴾ في جانب الاستيفاء ، أحس له وقعا خاصا ذلك أن إنقاص الحروف وتقليلها ، كأنما يشي بالسرقة ، وإنقاص الكيل في الوفاء لهم ، وأن زيادة المبنى في صيغة الاكتيال ، وتهديدها بحرف الاستعلاء مما يشي بالزيادة في استيفاء الكيل منهم قهرا واغتصابا ، مما تتناغم فيه الألفاظ مع المعاني تناغما لا يحدث مثله في نظم غير نظم القرآن الكريم ، وإلا فهل مصادفة أن تستبدل على بمن والأولى أكثر حروفا ، وأدل على الجور والظلم والاستيلاء ، ثم يختار معها صيغة الزيادة في حروف الفعل لتأتي في المقابل صيغة مجردة من الزيادة ، ومن التعدية بالحرف الذي من شأنه أن يتعدى الفعل به حتى جعله أبو حيان حذفا »[2] .

وهو كما ترى جار في المقصود الذي هو دينونة العباد على جزئيات الأعمال وقد رد البيضاوي رأي من يجعل الضميرين المنفصلين في (كالوا)

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب ٤٩٦/٨، والقرطبي ٧٢٨٨/١٠، وابن كثير ٤٨٣/٤، والشهاب ٣٣٥/٨ .

(٢) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ص٩٥ .

(وزنوا) مؤكدين للمتصلين فيهما أداه إلى ذلك استشكال خلل في تناسق الآية مع ما مضى قال : ـ رحمه الله ـ «لا ولا يحسن جعل المنفصل تأكيدا للمتصل ، فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله ، إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع لا في المباشرة وعدمها»[1] .

ألا ترى في هذا التركيب إلماعا إلى أنهم يكيلون الناس ويزنونهم ، فيخسرون ويكون ذلك مبرزا جورهم على سنن الآية الماضية ، فيكون إلماعا إلى إستخفافهم بالناس وربما يؤيده ما في السورة من قوله ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ** ﴾ وما جاء في مطلع الهمزة من قوله ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ** ﴾ . لعل ذلك يكون فإن أسرار الذكر الحكيم لا تتناهى . فإن قوله ﴿ **وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ** ﴾ . . يصور فرحهم ببخسهم الناس في الميزان واستخفافهم بهم ، وتصورهم جلب الغنى بالتطفيف ، وتكون الآية حينئذ دالة على بخسهم الكيل ، وأثر ذلك على المبخوس فإنه عند استكشافه ذلك يحس بالغفلة ، ويستشعر استخفاف المطفف به ، والمطفف ينقلب إلى أهله متفكها بذلك . ذلك قبس من نور المطلع وما استتبع ، والأمر بعد في كشف نسق آي السورة به .

سبيل البيان عن المقصود :

أولا : نسق عناصره :

السبيل الذي سلكته السورة الكريمة عن هذا المقصود هو سبيل الترهيب والترغيب . نعم هو شائع في الذكر الحكيم ، لا سيما في الأمر والنهي ، إلا أنه يجيء في كل سورة معقودا بغرضها ، الذي يشير إليه مطلعها ، فالأمر في كشف ما لسورة المطففين في هذا السبيل ، وقد ابتدأت

(١) أنوار التنزيل ٢/٥٤٥ .

السورة الكريمة بذكر الفعل المنهي عنه، ثم استتبع ذلك البيان عن مضرته، وأنه لا يفعله إلا منكر للبعث ، وكأن قوله ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ ناشئا مما مضى ، وممهدا لما يأتي من أسلوب الترهيب ، فاستتبع ذلك وصف اليوم الذي فيه الدينونة بصفات هي من خصائص السورة وبمفارقات بديعة .

ولما كان المقصود دينونة العباد على جزئيات الأعمال ، اقتضى ذلك وصف الكتاب سجل هذه الأعمال ، واقتضى مجيئه في سياق التطفيف صفات لا توجد في مواضع ذكر كتاب الأعمال في الذكر الحكيم ، ثم استتبع ذلك وصف عقاب الأعمال ، بعد ما قرر حفظها وكل ذلك معقود بالتطفيف .

ثم استتبع ذلك : وصف كتاب الأبرار مع التقابل ، وللأبرار ذكر شائع في القرآن الكريم ، إلا أنك لن تراه على هذا الوجه ، إذ جاء متقابلا مع أحوال المطففين على نسق ذكر أحوالهم ، فبدأ بوصف كتابهم ، ثم ثنى بوصف ثوابهم ، ثم عادت السورة إلى كشف جوانب أخرى من سمات المطفف ردا للمقطع على المطلع وللعجز على الصدر وكان هدانا إلى ذلك تقارب هذا الافتتاح مع افتتاح سورة الهمزة .

ثانيا : علاقات عناصره بالمطلع :

آيات يوم الدين وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المطففين:٤-٦) .

الآية الأولى وقعت من الآيات السابقة موقع شبه كمال الاتصال ، إذ هي تقع موقع الجواب عن سؤال ناشئ عن دلالة الجملة الأولى : ما اعتقاد هؤلاء المطففين في البعث؟ يقول ابن عاشور «هو استئناف ناشئ عن

الوعيد والتقريع لهم بالويل على التطفيف ، وما وصفوا به من الاعتداء . . والهمزة للاستفهام التعجيبي ، بحيث يسأل السائل عن علمهم بالبعث . . ويرجع الإنكار والتعجيب من ذلك إلى إنكار ما سيق هذا لأجله وهو فعل التطفيف ، فأما المسلمون الخلص ، فلا شك أنهم انتهوا عن التطفيف بخلاف المنافقين »[1].

فتراكيب الآيات الأولى تشعر أنه لا يفعل التطفيف مصدق بالبعث والقرطبي ـ رحمه الله ـ يجعل دلالات تراكيب هذه الآيات ويعقدها بالمطلع فيقول : « وفي هذا الإنكار والتعجيب ، وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصف ذاته برب العالمين بيان بليغ لعظيم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف »[2].

ولا ريب أن الظن ها هنا بمعنى الشك ، وإن كان قد أتى في القرآن الكريم بمعنى اليقين ﴿ **ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ** ﴾ (البقرة:٤٦) لأنه ها هنا في سياق ذم التطفيف والمطففين ، ومجيئه هنا له إيحاء بتكذيبهم بيوم الدين ، فتكذيبهم غير مشكوك فيه ، لأنه ما طرأ التصديق بالبعث على أذهانهم ولو طرأ مرة،لكان لهم زاجرا عن التطفيف، وهم بداية استحقوا الذم بالتطفيف ، لذا أشار إليهم باسم الإشارة وهو رابط لفظي للآيات بالمطلع لأن المشار إليه (المطففين) وهو خروج على خلاف مقتضى الظاهر ، فالظاهر أنه قال : ألا يظنون أنهم مبعوثون . . وإنما جاء كذلك تناسبا مع المطلع . قال ابن عاشور : « وفي العدول عن

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٣٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن الكريم ٧٢٩١/١٠، والشهاب الخفاجي على البيضاوي ٣٣٦/٨ .

الإضمار إلى اسم الإشارة . . لقصد تمييزهم وتشهير ذكرهم في مقام الذم ، ولأن الإشارة إليهم بعد وصفهم بـ(المطففين) تؤذن بأن الوصف ملحوظ في الإشارة فيؤذن ذلك بتعليل الإنكار»[1].

وقوله ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ جاء بلام التوقيت عقدًا للآية السابقة بغرض السورة من البيان عن يوم الدينونة ، وذلك مع ضميمة وصفه بأنه عظيم ، ولسورة المطففين خصيصة في هذا الموطن ، فالشائع في الذكر الحكيم وصف عذاب هذا اليوم بأنه عظيم ، أو أن مشهده عظيم[2]. ويبدو أنه جاء كذلك تقابلا مع التطفيف فمن العظم المحاسبة على دقائق الأعمال وجلائلها ، فهم يفرحون بالنزر القليل ، لعدم إيمانهم باليوم العظيم كأن العظيم يقابل الطفيف .

ثم وقعت الآية بعد ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ . . . ﴾ بدلا من الآية الماضية ، وهذه الآية من خصائص السورة الكريمة ، ولعل الصلة بين قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ . . . ﴾ ، وبين ذكر المكيل والموزون والتطفيف في المطلع ظاهرة ، ويحسن ذكر آية كريمة في هذا الموطن ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن:٩) وذلك الوصف المذكور لليوم في هذا الموطن يكون في انتظار الحساب والميزان . والسنة المطهرة تفسر عظم هذا الموقف لغاية تجعل الناس يستشفعون للانصراف من هذا الموقف ولو إلى النار فكأن لو قيل : يوم يحاسب الناس من رب العالمين ، لما كان فيه إلماع إلى المطلع ففي ذكر وصف الربوبية تنبيه إلى إنعامه ـ سبحانه ـ على المطففين ، فكأنما لو قيل يوم يقوم الناس للعزيز الحكيم ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٩٢/٣٠، وروح المعاني ٧٠/٣٠ .

(٢) الأنعام ١٥، والأعراف ٥٩، ويونس ١٥، ومريم ٣٧، والزمر ١٣، والأحقاف ٢١.

لما تناسج مع هذا السياق ، الذي هو في دينونة المربوبين على جزئيات الأعمال . قال الألوسي ـ رحمه الله ـ «وتفاقم الإثم في التطفيف ما لا يخفى وليس ذلك نظرا إلى التطفيف من حيث هو تطفيف بل من حيث إن الميزان قانون العدل الذي قامت به السموات والأرض»[1] .

آيات كتاب أعمال الفجار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ .

الملحوظ أن هذا الوصف ﴿ ٱلْفُجَّارِ ﴾ فيه إلماع إلى سورة الانفطار ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ولما كان مساق السورة في دينونة العباد على جزئيات الأعمال ، تقدم ذكر الكتاب عقب ذكر اليوم ، وقبل ذكر العقاب .

والظاهر أن القرآن الكريم سلك المطففين في الفجار ، حيث أوقع التطفيف بين هذين الموضعين في سورتي الانفطار والمطففين ، وشيء آخر هو أنه بعد هذا الوصف ذكر أن كتابهم في ﴿ سِجِّينٍ ﴾ وهو جزاء متقابل مع لفظ التطفيف بدلالته التي ذكرناها بكلام العلماء ، فقد ذكروا أن ﴿ سِجِّينٍ ﴾ صخرة تحت الأرض السابعة ، تقلب فيجعل كتاب الفجار تحتها وقيل : هي الأرض السابعة السفلى ، وفيها إبليس وذريته وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ (سجين أسفل الأرض السابعة)[2] ، لعلك تلحظ مناسبة أيضا بين ما ذكروه في معنى الويل ، وما ذكروه في معنى سجين فالتطفيف غاية التسفل ، وما يدون فيه أيضا في غاية السفل .

---

(١) روح المعاني ٣٠/٧١ .

(٢) راجع : الجامع لأحكام القرآن ١٠/٧٢٩٣، ٧٢٩٤ .

قال الإمام محمد عبده «ويفهم من استعمال اللفظ في اللغة ، ومن مقابلته بكتاب الأبرار الذي في عليين ، أن فيه معنى التسفل ، كما أن في مقابله معنى التعلى»[1] أرأيت ، وكن على ذكر من أن ما جاء من وصف كتاب الأبرار ومآلهم جاء اقتضاء لذكر وصف الفجار ومآلهم ، والسياق هو الذي انتصر به الإمام محمد عبده في مدلول اللفظ ، وعلى أية حال فإن الخسة والتسفل لا تفارق أيا من دلالات هذا اللفظ كما ذكرها أهل العلم ، ولابن عاشور كلام آخر . فقد ذكر أن أولى الأقوال بالصواب «أنه علم لواد في جهنم صيغ بزنة (فعيل) من مادة السجن للمبالغة . . سمى ذلك المكان سجينا ، لأنه أشد الحبس لمن فيه فلا يفارقه»[2]. ومعنى الذلة والمهانة لا يفارق اللفظ على هذا الوجه أيضا .

وهذه الآيات موصولة بقوله ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ فإن كلا «إبطال وردع لما تضمنته جملة ﴿ أَلَا يَظُنُّ ...﴾ من التعجيب من فعلهم التطفيف ، والمعنى : كلا بل هم مبعوثون لذلك اليوم العظيم . . فهي جواب عما تقدم»[3]. والتناسب ظاهر بين أداة الردع ، وبين الفعل المنهي عنه ، والملحوظ في تركيب الآيات أنه عاجل بالبيان عن موضع الكتاب ، ﴿ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ ثم جاء قوله ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ ليضيف تهويلا بالغا إلى التهويل الذي دل عليه التركيب الأول ، ثم لما طال الحديث في تهويل موضع الكتاب أعاد ذكر الكتاب ، ليبني عليه وصفا له ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ ولم يصلح أن يقال هنا : هو مرقوم ، لأنه حينئذ يظن به تفسيرا لسجين ، وليس بذلك ، وإنما هو

(١) جزء عم ص٣٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١٩٥/٣٠ .

(٣) السابق ١٩٤/٣٠ ويرى الشيخ زاده أنها ردع عن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب .

وصف لكتاب ، وهو وصف معنوي ، وأصل التركيب أن كتاب الفجار المرقوم في سجين ، كما ذكر الكرماني والرازي رحمهما الله[1].

ولو جاء كذلك لفات التهويل البالغ بموضع الكتاب ، الموطئ بعد لموضع أصحابه من الفجار ، ولما تناسب مع وصفهم بالفجور.

وقوله ﴿ مَّرْقُومٌ ﴾ من خصائص السورة الكريمة ، وهو مناسب جدا للمطففين ، ولقوله في الانفطار ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾ فمرقوم من الرقم وهو الخط الغليظ أو هو تعجيم الكتاب كما قال الراغب[2] . أو «المكتوب كتابة بينة تشبه الرقم في الثوب المنسوج»[3]. وهي دلالة متناسبة مع اعتقاد المطففين فوات ذلك على الكاتبين أو ذهابه بعد الكتاب لقلته ، ومتناسب أيضا مع المؤكدات في جملة الانفطار ، وما تعكسه من إنكار المنكرين كتابة أيسر الأمور وأجلها ، وذلك هو ما عقد وصف الكتاب بسياق السورة ومطلعها وسياقها في القرآن الكريم . فالتناسق وقع بين مفردات هذا العنصر والمطلع وكذلك بين التراكيب ، وتلحظ أمرا بديعا ، فأنت تراه قدم السجين تناسبا مع الويل وأخر الوصف (مرقوم) تناسبا مع التطفيف ، ولو قدم الوصف لما ظهرت هذه اللطيفة ولئن بدا تكلف في استخراج هذه العلاقات فمرجعه لعجز البيان لا لانعدام العلاقات .

---

(١) راجع : البرهان للكرماني ص٢١٥، ومسائل الرازي ص٥٢٣، والتحرير والتنوير ١٩٥/٣٠، والشيخ زادة ٦٣٢/٣ .

(٢) المفردات مادة (ر ق م) : ص٢١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ١٩٦/٣٠ .

آيات وعيد المكذبين وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ الملحوظ أن الآيات ترق لقوله ﴿ أَلَا يَظُنُّ . . ﴾ وذلك لمعالم في التركيب وضعها الذكر الحكيم ، منها أن الآيات جاءت مقطوعة عما قبلها ، وذلك لقوة الصلة ، فهي فيما يبدو ـ مبينة لجملة ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ ، فكانت وقعت بدل اشتمال ، ومما يغري باستظهار هذه العلاقة ما يدل عليه تنوين إذ من حذف جملة ، وذلك إلاحة إلى تقديرها مما مضى ، وهي أداه ظاهرة لاستكشاف معاقد الكلام ، ومن ذلك أيضا التعبير بالظن ، ثم التعبير بالتكذيب ، وعند الألوسي أن « قوله ﴿ وَيْلٌ ﴾ متصل بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وما بينهما »[1] . وفي إعادة ذكر الويل عقد للآيات بالمطلع أيضا ، وإغراء بأن هؤلاء المكذبين هم المطففون وما أجمل ما قال الإمام محمد عبده في الآية ﴿ وَيْلٌ ...﴾ « إعادة للوعيد الأول في قوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ بعبارة أدل على عظم الجرم وأعم ، تشمل تلك الجريمة وغيرها »[2] ومن نمط هذا الترقي أنه وصفهم بالتطفيف ثم بالفجار ثم بالمكذبين كما قال الأستاذ سيد قطب[3] ، مع ملحظ مهم هو أن كل ذلك قد يضرب بقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ وسنة القرآن أنه يأتي بهذا التركيب مع الكفار ، وليس بذلك وإنما هو إغراء بما ذكره أهل العلم ، إذ يسوي بين الكفر بالقول (الإشراك) والكفر بالعمل (ارتكاب كل مجرم) .

---

(١) روح المعانى ٣٠/٧٢ .

(٢) جزء عم ص٣٤ .

(٣) راجع : في ظلال القرآن ٦/٣٨٥ .

ويجمل ذكر كلام ابن عاشور في هذه الآية ، فقد ذكر في موقعها أنه « يجوز أن تكون مبينة لمضمون جملة ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ فإن قوله ﴿ يَوْمَبِذٍ ﴾ يفيد تقوية جملة محذوفة يوم إذ يقوم الناس لرب العالمين ويل فيه للمكذبين ، ويجوز أن تكون ابتدائية ، وبين المكذبين بيوم الدين والمطففين عموم وخصوص وجهي ، فمن المكذبين من هم مطففون ومن المطففين مسلمون وأهل كتاب لا يكذبون بيوم الدين ، فتكون هذه الجملة إدماجا لتهديد المشركين المكذبين بيوم الدين وإن لم يكونوا من المطففين »[1] .

والظاهر من السياق أن الآية ليست إدماجا لتهديد المشركين ، وإنما الآية تجرى في تهديد المطففين ، ويترقى أسلوب الترهيب ، والذي حمل العلماء على الاختلاف هو الآية المذكورة ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ ومراد السياق كما يظهر لى ـ أن في ذكر الآية لطيفة تعين على ما يبدو من ترقي أسلوب الترهيب ، كأن موقع الآية يقول للمطففين : أنتم بجرمكم الذي يدل على عدم تصديقكم بيوم الدين ، تضعون أنفسكم والكافر في قرن واحد ، أما الآية ففي حق الكفار على سنة القرآن ، ووضع القرآن الكريم معلما لهذا التفريق بالواو التي هي للحال أو الشأن ﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ ثم وصف هذا الاعتداء الأثيم بقوله : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ . . .﴾ كأن جرم المطففين يعادل جرم الكافرين ، أي والشأن والحال أنه لا يكذب بيوم الدين إلا كل معتد أثيم ، بأسلوب القصر الذي قصر التكذيب بيوم الدين على أهل الشرك والمطففون يأبون إلا هدم هذا الحصار والدخول معهم ، لأن جرمهم ودأبهم عليه يدل على عدم تصديقهم فكأن الآية جاءت

(١) التحرير والتنوير ١٩٦/٣٠ .

استطراداً وبيانا للاعتداء الأثيم ، ولهذا الاستطراد أثره في الترقي بترهيب المطففين ، وهذه الآيات وإن جاءت في مواطن أخرى من هذا الكتاب العزيز إلا أن لها دلالة سياقية هاهنا تتناسق والمطففين إذ هي تتشارب من تصوير حجم هذه الجريمة والذي يدب دبيبا خفيا من المطلع إلى هنا حتى بلغ الذروة وأوشك أن يكون كفرا ، والقرآن الكريم يعقد بين هذه الآيات وبين المطلع وبين السورة الماضية ، فقد وقع قوله ﴿ **ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ** ﴾ بدلا من قوله ﴿ **لِّلۡمُكَذِّبِينَ** ﴾ فعقد الويل هاهنا بقوله ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ** ﴾ . وكل ذلك ناظر إلى قوله : ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ** . . . . . ﴾ (الانفطار:١٧-١٩) ولو قلنا هاهنا (الذين يكذبون بيوم الفصل ـ كما في المرسلات ، لما تناسج مع سياق السورة ولا مع موقعها من الكتاب العزيز ، وكأني بالدِّين يذكرنا بالدَّيْن ، والتطفيف دين للعباد في رقاب المطففين ، وهذا التشابه بين سمات المطففين وسمات الكافرين له صداه في آخر السورة كما سيأتي إن شاء الله .

آيات عقاب الفجار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ **كَلَّاۖ بَلۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ (المطففين:١٤-١٧) .

موقع هذه الآية عقب قوله : ﴿ **إِذَا تُتۡلَىٰ** . . . ﴾ أغرى بعض أهل العلم بالقول بأن (**كَلَّا**) ردع لما قالوه من أن القرآن أساطير الأولين[1] . وليس كذلك لما استظهرناه من أنها جاءت استطرادا ، وانتصرنا بسياق الآيات ،

(١) راجع : الشهاب على البيضاوي ٣٣٧/٨، والشيخ زاده ٦٣٥/٣، والتحرير والتنوير ١٩٨/٣٠ .

والذي أبصره أن (كَلَّا) هذه تتناغى مع (كَلَّا) الماضية ، وكأنها معلم لفظي لعقد هذه الآيات بقوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ . . . ﴾ وينتصر لذلك بقوله بعد ﴿ بَلۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم . . . ﴾ أى أن المطففين لا يكذبون بيوم الدين ، وإنما هو الران الذي قد حال بينهم وبين اليقين المثمر العمل ليوم الدين ، ويذكر أهل العلم أن معنى ران « ثبت على قلوبهم الخطايا حتى غمرتها »[1] إلا أن ابن كثير قد عقد بين هذا المعنى وبين الآية السابقة على هذه الآية فقال : « ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا : إن هذا القرآن أساطير الأولين . بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا »[2] . ولكن السياق يأبى إلا أن يكون ذلك في حق أهل القبلة المطففين ، وكأني بالران الذي لم يرد في غير هذه السورة ينادي على التطفيف الذي لم يرد في غير السورة أيضا ، فما الران إلا وصف حسي للطبقة التي تغلف الفؤاد وهي من صغائر المعاصي ، ولعلك تذكر قول أهل العلم بأن الصغيرة تصير كبيرة بالمداومة عليها ، تأمل هذا المعنى لران ومعنى التطفيف بدلالته التي بيناها بكلام العلماء ، فما زالت السورة جارية في تعظيم إثم التطفيف الذي يحول بين القلب وبين اليقين بيوم الدين ، وكأني بقوله ﴿ مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ فاعل لـ ﴿ رَانَ ﴾ ينادي على التطفيف بقوله : ﴿ يَكۡسِبُونَ ﴾ وكأنه لو قال (يعملون) أو (يفعلون) أو (يجرمون) أو ما شئت ، لما لاح إلى ما يتخيله المطفف من الكسب المادي بإثمه ، وفيه تصوير وتشخيص لإثم التطفيف ، ولا تجد كهذه الآية

(١) فتح الباري : كتاب تفسير القرآن ٨/٥٦٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٨٥ .

في الذكر الحكيم ، وهي كما ترى تتشارب من دلالة المطلع وحسبنا بيان السنة المطهرة لمعنى الران[1] فهي تصور أن المستصغر من الذنوب باستمرائه يعظم أثره كالتطفيف والهمز واللمز في الاستصغار أما الكفار فهم يرتكبون كبائر المعاصي ، ولا بعد الكفر ذنب .

والآية مع ذلك ـ بعد بيانها عن أثر التطفيف ـ تمهد للاحقتها ، فقد دلت بتراكيبها أن ما يكسبونه ـ أي من التطفيف ـ نسج طبقة الران على أفئدتهم فحجبهم ذلك عن اليقين ، فعوقبوا بحجبهم عن التنعم برؤية الله ـ جل وعز ـ وكأن هذه الآية بداية لتفسير الويل ، تأمل قول ابن عاشور « جملة ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ وما عطف عليها ابتدائية ، وقد اشتملت الجملة ومعطوفها على أنواع ثلاثة من الويل ، وهي الإهانة والعذاب والتقريع مع التأييس من الخلاص من العذاب »[2] وهكذا ترى التسلسل واضحا ذنوب صغيرة أدى الاستمرار فيها إلى ران نسج على قلوبهم ، فحجبها عن اليقين أدى ذلك إلى حجبهم عن رؤية الله ، أدى حجبهم عن رؤيته سبحانه[3] إلى استمرارهم في الهوان ، ولا كهذه الآية في الذكر الحكيم ، وجرت في نسق يتأبى على التقديم والتأخير ، وجاء الخبر متعدد التوكيد ، شأن مخاطبة

---

(١) راجع : بيان السنة في الكلام على مفردات المطلع وراجع : ابن كثير ٤/٤٨٥ أما ما قاله ربنا في حق غير أهل القبلة ، فمثلا ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا . . . ﴾ (الإسراء:٤٥، ٤٦) .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٢٠٠ .

(٣) ومن أنكر الرؤية جعله تمثيلا لإهانتهم بإهانة من يمنع من الدخول على الملوك أو قدر مضافا مثل رحمة ربهم ، راجع : الشيخ زاده . ٣/٦٣٥ فمعاني الإهانة لا تفارق هذا الوجه أيضا .

المنكرين ، فأشاع ذلك روح القهر والغضب ، وهي بادية من تصدير السورة بالويل .

وجاءت إذ منونة في قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ لتنادي بالجملة المحذوفة ـ كما يشير إليه تنوين إذ ـ على قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وهو نمط من الإيجاز بالحذف ، يشير إلى اكتناز المعاني ، وينبه إلى استكشاف معاقد الكلام ، لاستبصار السلك الخفي الذي انتظم نسق السورة ، ولذا لا تجد كهذه العقوبة في الذكر الحكيم لأنك لا تجد سياقا مَهَّدَ لها كهذا السياق ، ثم إن ما يفيده الحجب عن رؤية الله من البقاء أبد الآبدين في الذلة والمهانة ، يتناسب مع ما يفيده السجين (موضع كتابهم) حين القول بأنه صيغة مبالغة بمعنى السجن ، وهو تناسق بيِّنٌ في السورة ، ترى أطياف النور تشع من كل آية ليستكشف ذلك من استبصر ما قبلها وما بعدها .

ثم جاء بعد قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وكأنه إشارة إلى تشارب دلالات التراكيب من آخر الانفطار ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ ﴾ (١٣-١٥) وفيها أثر مجاورتها للآية الماضية من كثرة المؤكدات وهو يشير إلى ترقي سياق الترهيب وقد عطفه بثم الدلة على التراخي ، إيذانا بطول اليوم الموصوف في السورة ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وقد اختار اسم الجحيم ، ويبدو أنه أشد الأماكن عذابا في جهنم كما يشعر بذلك السياق ، وهو استنباط متناسب مع ما وصف به موضع كتاب الفجار في السورة ، ومتناسب مع وصفهم بالفجار ، وربما ينتصر لذلك بأنه دعوة الملائكة للمؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧ ﴾ (غافر:٧) ونمط كثرة المؤكدات في هذه الآية والتي قبلها يتناسب مع قوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ وما تشارب منه بعد ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ وكأنهما لو عريتا من مؤكد واحد مما جاءتا على وجهه لما تناسبتا مع ما مضى من بيان أنه يخاطب المنكرين ، ولو بتنزيلهم منزلتهم .

ومعلم آخر يعقد الآية بما مضى وبالمطففين ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهو إمعان في الذلة والمهانة للمطففين ، فإنه ينادي على قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ نداء ظاهرا ، والآخر ينادي على قوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ نداء خفيا كما سبق البيان عنه ، والتركيب يتناسب مع الحجب عن رؤية الله ، ومع السجين ، فإنهما يصوران المهانة والمذلة ، تأمل اسم الإشارة ، وكيف أصبح المكذب به يشار إليه فكيف جاء معرفا بالاسم الموصول ، لبناء جملة تفضح أمرهم ، وتبرز دأبهم على التكذيب ﴿ كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ تكذيبا بعد تكذيب وكيف قدم المجرور ﴿ بِهِۦ ﴾ لبيان انصباب تكذيبهم على هذا اليوم وفي ذلك من التقريع واللوم ما ترى .

آيات كتاب الأبرار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين:١٨-٢١) .

إن ﴿ كَلَّآ ﴾ هذه تنادى على كلا في قوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ وقد جاء وصف كتاب الأبرار متقابلا مع وصف كتاب الفجار نسقا وأسلوبا ومتناسبا مع المطلع أيضا ، قال الشيخ زاده : ـ رحمه الله ـ « ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ﴾ تكرير للأول ، ليعقب بوعد الأبرار ، كما عقب الأول

بوعيد الفجار ؛ إشعارا بأن التطفيف فجور ، والإيفاء بر أو ردع عن التكذيب»[1] ، وهما سياق واحد كما عرفت فلئن كان زجرا عن التكذيب فالتكذيب موصول بالفجار وبالمطففين كما عرفت، وقد كشف ابن عاشور عن العلاقة الأسلوبية بينهما فقال عن الآيات : «فإن هذه الجملة بحذافيرها تشبه جملة إن كتاب الفجار لفي سجين أسلوبا ومقابلة ، فالوجه أن يكون مضمونها قسيما لمضمون شبيهها ، فتحصل مقابلة وعيد الكفار بوعد الأبرار ، فالتعرض لنعيم الأبرار إدماج اقتضته المناسبة ، وإن كان المقام من أول السورة مقام إنذار ، ويكون المتكلم بالوعيد والوعد واحدا ، وجه كلامه للفجار الذين لا يظنون أنهم مبعوثون ، وأعقبه بتوجيه كلامه للأبرار الذين هم بضد ذلك ، فتكون هذه الآيات معترضة متصلة بحرف الردع على أوضح الوجهين المتقدمين فيه»[2] ، وهو كلام نفيس جدا كشف لنا سياق السورة ووجه المناسبة ، وأن الآيات جاءت عنصرا ثانويا في البيان عن غرض السورة ، لذا جاء هذا العنصر مغلولا بنسق تراكيب العنصر الأصلي (وصف كتاب الفجار وعقابهم) وهذه من مفارقات ما هو أصلي وما هو ثانوي في البيان عن غرض السورة . ودائما يعظم البيان عن الشيء بذكر البيان عن نقيضه . فالسورة في دينونة العباد على جزئيات الأعمال . وهذه الآيات في بيان ثواب العباد على جزئيات الأعمال وأنت تعلم أن قوله : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ تعظيم على وجه الترهيب ، وأما قوله : ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾ فهو تعظيم أيضا لكن على وجه الترغيب ، وأنت ترى التناسب ظاهرا بين المفردات وبين التراكيب فالمؤكدات في الأسلوبين متعادلة ، والمفردات في الأسلوبين متقابلة ، ولذلك ترى نشازًا بينا إن

(١) الشيخ زاده عن البيضاوي ٦٣٥/٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٢/٣٠ .

وضعت ما ذكر في سورة عبس موضع هذه الآيات ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أجمل كل ذلك هذا الوصف ﴿ عِلِّيُّونَ ﴾ وما أعقبه من التعظيم ، واقتضاء لنسق وصف كتاب الفجار ، وصف كتاب الأبرار أيضا بنفس الوصف ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴾ لكن له دلالة تتناسب وسياق الترغيب الذي جاء هذا العقد في نسقه أى كتاب مرقوم لا يترك ولا يمحى فيه يسير العمل كالتنزه عن يسير الصغائر (التطفيف) وفيه إغراء بالعمل كما ترى ، وفي الأول ردع وزجر عن العمل ، وهو كنسق الأول تركيبا وترتيبا ، والتأويل كلا إن كتاب الأبرار لمرقوم في عليين كما بيناه فيما مضى ، تأمل هذا النمط الأعظم فإنك تجده متقابلا مع دلالة التطفيف على خسة فاعليه وتسفلهم كما مضى بيانه .

وقد امتازت آيات كتاب الأبرار بهذا القيد ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ قال الإمام محمد عبده : « وجاء بهذه الصفة ، ليدل بها على أنه أمر محقق بالثبوت ، حتى أن المقرب ليشهده شهود العيان إذا وصل من القرب »[1] وهو له دلالته في الارتفاع بجلال كتاب الأبرار ، وتأمل كيف قال ﴿ يَشْهَدُهُ ﴾ ولم يقل (يعرفه) أو (يحضره) مثلا . لأن في الشهادة دلالة التحقق من الشيء ، وفيها ما ليس في الحضور من إبصار الشيء ومعاينته ، وفي وصف ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ تناسب مع ﴿ عِلِّيِّينَ ﴾ وبيان عن موضع عليين فكأن هذا القيد حدد عموم ما دل عليه عليون من عدم تحديد الموضع ، وكلما تكاثرت دلالات رفعة كتاب الأبرار ، دل ذلك على انخفاض كتاب الفجار لذا فقد جاء أسلوب آيات وصف كتابي الفجار والأبرار ومآلهم مبنيا على المقابلة ، تلك الوسيلة البديعية العالية حين البيان عن التمييز بين الأشياء والمعاني .

---

(١) جزء عم ص٣٦ .

آيات ثواب الأبرار وعلاقتها بالمطففين :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٣﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

جاءت هذه الآيات متقابلة ، مع الآيات الماضية في وصف عقاب الفجار ، ولها دلالتها الأولى في الإغراء على العمل ، وله دلالة سياقية في البيان بالمفهوم عن تشنيع عقاب الفجار ، لذا جاءت التراكيب مغلولة بالبيان عن نقيض عقوبة الفجار ، وذكرت الآيات من الثواب ما يتقابل مع العقاب المذكور في السورة بحيث لو أدرت آيات الثواب في القرآن الكريم في هذا الموضع لوجدت نشازا منكرا لابتناء السورة على المقابلة ، ولوجدت نسق ما تضعه موضعها لا يتحاور مع مقابله ، بل يتعاند ويتناقض ، وفي تراكيب الآية الأولى إلاحة إلى أن ما يأتي من الآيات شرح لنظيرتها في الانفطار ، وكأن سورة الانفطار هي التي مهدت لأسلوب المقابلة الذي جاءت السورة الكريمة على لاحبه تذكر في الانفطار قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ وتأبى السورة (المطففين) إلا أن تكون شرحا لهاتين الآيتين ، وتدل التراكيب في السورة دلالة ظاهرة على هذا الأمر بتكرار هذين التركيبين بنمطهما دون أدنى تغيير ، إلاحة إلى نسق الأساليب في السور المتجاورة ، ثم يتبع كل منها شرح وتفصيل .

وتلك بصائر هدى إليها إبصار موقع السورة في الكتاب العزيز فلله الحمد والمنة . جاءت الآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ معراة عن العاطف إيذانا بقوة الاتصال ، ولله در البلاغيين في تسمية ما جاء معرى عن

العاطف بكمال الاتصال ، كأنه الوجه الأعلى في اللحمة بين الجمل ، وفي تعريتها عن العاطف إيحاء بأن هذه الآية من ولائد ما قبلها ولو جاء بعاطف لكان الكتاب والأبرار متغايرين . أما وقد جاء كذلك وذكر وصف الأبرار في الموضعين فذلك دال على أن الكتاب وصاحبه في الارتفاع وعلو القدر وشرف المكانة على حد واحد ، ولذلك أثره في البيان عن مكان الفجار بالمفهوم أيضا .

يقول الشيخ الصاوي : رحمه الله ـ في موضع الآية ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ «شروع في بيان عاقبة أمرهم إثر بيان حال كتابهم على سنن ما مر في شأن الكفار»[1] وهو كلام بين في الدلالة علىالتناسب في نسق آي السورة . ذلك ما تزعمه من أن عناصر السورة تتناسق مفرداتها وتراكيبها وأنساقها ، تناسقا يخرجه عن حد الإعجاز تبديل حرف مكان حرف أو آية مكان أخرى .

وقد ألمع ابن عاشور إلى التناسب في هذا النسق فقال عن الآية «مضمون هذه الجملة قسيم لمضمون جملة ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ولذلك جاءت على نسيج نظم قسيمتها افتتاحا وتوصيفا وفصلا ، وهي مبينة لجملة ﴿ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ فموقعها موقع البيان أو موقع بدل الاشتمال»[2] . وهو كمال الاتصال عند أهل الفن . وأتبعت هذه الجملة بقيد ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ وهو فيما يظهر متقابل مع قوله : ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فهم ينعمون بالنظر إلى الله ـ عز وجل ـ وينتصر لذلك بما جاء بعده : ﴿ تَعْرِفُ فِى

(١) الصاوي على الجلالين ٢٩٩/٤ .
(٢) التحرير والتنوير ٢٠٤/٣٠ .

﴿ وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ وليس بعد رؤية الله ـ جل وعزت قدرته ـ شيء ينضّر الوجه ، ألا تراه كيف انتخب الوجه دون الجسد ، لأنه محل العينين ، أول ناعم برؤية نوره ـ سبحانه ـ ماذا لو قال : تعرف في أجسادهم نضرة النعيم ، والتنعيم يظهر بلا ريب أثره على الأجساد ، نعم الوجه محل السرور ، وقد يكون التعبير به لهذه الخصيصة ، لكن السياق المبني على المقابلة يأبى إلا أن يكون المراد أنهم ينظرون إلى ربهم ، ويؤيد هذا السياق بيان القرآن في موضع آخر : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢-٢٤) وهذا التفصيل يومئ إلى دلالات العبوس وشحوب الوجه والتكدير التي وراء قوله : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ فليس بعد الحجب عن الله نعيم ، وذلك لأنهم فجروا وطففوا فعميت قلوبهم عن مراقبة الله ـ جل وعز ـ فالجزاء من جنس العمل ، وهكذا كلما تكاثر البيان عن ثواب الأبرار ، دل بالمفهوم على تشنيع عقاب الفجار .

ثم جاء قوله : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ وهو من خصائص السورة وعلاقته بما مضى ظاهرة إذ هو حال ثالثة من أحوال الأبرار . والرحيق هو الخمر الصافية الطيبة ، وماذا لو عبر عن الرحيق بالخمر؟ لا ريب أن الرحيق يفيد صفات أخرى للخمر لا يفيدها الخمر ، فالرحيق أيضا الخمر التي لا شوب فيها كما قال أهل العلم[1] ، وهو المتناسب مع ما جرت به أوصاف كتاب الأبرار من العلو والرفعة فناسب أن يذكر أرفع أنواع النعيم،ويتناسب أيضا مع ما لحق من قوله:﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ فهو استئناف ناشئ مما مضى ، ولما كان الشائع أن يكون الكدر

(١) راجع : المفردات (رحق)، وأساس البلاغة (رحق)، والتحرير والتنوير ٣٠/٢٠٥ .

في آخر الأشربة كما قال القرطبي[1] ، وهو وصف آخر غير قوله : ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ فإن ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ عند أهل العلم «المسدود إناؤه»[2] وفيه تكريم له ، وإعطاؤهم ثوابهم وافيا غير منقوص فكأن فيه تقابلا مع التطفيف ودلالاته ، فذلك الرحيق كامل مختوم ، وسبيل الملوك أنهم كانوا يجعلون الختم على الرسائل لئلا يقرأ حاملها ما فيها ، كما قال ابن عاشور ، فوضع الخاتم على الكتاب تكريم له ، وكل ذلك إلاحة إلى ما كان عليه الأبرار من العمل المتقابل مع عمل المطففين ، أترى أن هذا الرحيق يعطاه إلا من كال أو اكتال فأوفى واستوفى رغبا ورهبا؟ فجاء ثواب الأبرار ناظراً إلى عقاب الفجار ، مشيرا إلى أعمال الأبرار المتقابلة مع التطفيف ، وكأن مجيء هذا الثواب في سياق التطفيف ، جعل النظم يبادر بهذا الاعتراض[3] وهو تعريض بوجه صنيع المطففين كاشف عن خبيئتهم في تنافسهم وتسفلهم بالقناعة والرضا بالتنافس في الخسيس ، وعماية قلوبهم عما يجب فيه التنافس ، وقدم في جملة الاعتراض ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾ وفيه دلالة على القصر ، فهذا النعيم يجب أن يكون هو المخصوص بالتنافس ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ .

ثم جاء بوصف آخر من خصائص السورة أيضا بعد هذا الاعتراض ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ وهو متناسب تناسبا بينا مع وصف كتاب الأبرار المتقابل مع وصف كتاب الفجار ، تأمل هذا القيد ﴿ مِن تَسْنِيمٍ ﴾ والتسنيم ما يأتى من الأعالي ، واسمه التسنيم ليطابق الاسم مسمّاه ، فإنه من مصدر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٧٣٠١/١٠ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٠٥/٣٠ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ٢٠٧/٣٠ .

سنم الشيء إذا جعله كهيئة السنام ، وقد وجهوا هذه التسمية بأن هذه العين تصب على جنانهم من علو فكأنها سنام[1] ، ألا ترى هذا القيد متناسبا مع ما نص عليه من موضع كتاب الأبرار ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ ، تأمل موقع آيات عبس في صحف الأعمال ، لو جاءت هاهنا ألست تبصر أنها تتعاند مع ما قبلها وما بعدها؟ والذي أبصره أن تفصيل آيات الثواب يجعلنا بيقين ـ إن شاء الله ـ نضع مقابلا مطويا في آيات عقاب الفجار التي اكتفى فيها بقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ففى هذا الجحيم كل الأوصاف المتقابلة مع وصف ثواب الأبرار ، كما يلوح به أسلوب المقابلة الذي ابتنت عليه السورة الكريمة .

ومن المعالم المتنادية على نسق السورة قوله : ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ وهي كقوله : ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ الأبرار وكتابهم في موضع واحد ، والمقربين تتناغى مع التسنيم كلاهما ارتفاع وعلو ، تأمل النشاز المنكر في النسق لو جئت بقوله هاهنا والموضوع واحد ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ (الإنسان:٥ ، ٦) ونسق آي المطففين كما عرفت ، أن لكل سورة نورها البياني الذي لا يلتبس بنور السورة الأخرى مهما تقاربت السور ، وكل من نور الله تعالى الذي لا يتناهى نوره ، ويستشعر ذلك أهل البصر والبصيرة ، ويتفاوتون في البيان عنه تفاوتا بينا ، فالأمر كما رأيت ، وآيات الثواب شائعة في الذكر الحكيم ، إلا أن لكل سورة أسلوبها في مفرداتها وتراكيبها .

---

(١) راجع جزء عم ص٣٦، والتحرير والتنوير ٢٠٨/٣٠، والشيخ زاده ٦٣٦/٣ .

آيات في جرائم أخرى للمطففين وعقابهم وعلاقاتها بالمطلع :

قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ صدق الله العظيم .

قلت : إن تقارب افتتاح المطففين مع افتتاح الهمزة ، ومجيء هذه الآية في المطففين أغرانا بوضع هذا العنوان لهذه الآيات ، وما قد يلمع إليه صياغة قوله : ﴿ كَالُوهُمۡ ﴾ من الاستخفاف بالناس والاستهزاء بالتطفيف ، الذي يعني أن المطففين يعدون الناس الذين يبخسونهم حقوقهم من أهل الغفلة ، وقد ذكروا أن المراد بالذين أجرموا : هم مشركو مكة : أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاص بن وائل وأشياعهم ، كانوا يضحكون من عمار وصهيب وخباب وغيرهم من فقراء المؤمنين ويستهزئون بهم ، وقيل جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين فسخر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا : رأينا اليوم الأصلع فضحكوا منه فنزلت قبل أن يصل عَلِيّ إلى رسول الله ﷺ[1] .

والذي ذكروه ـ فيما أرى ـ على لاحب ما ذكره القرآن قبل في قوله ﴿ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا ﴾ ويكون هاهنا من نمط الترهيب الذي تسير السورة على لاحبه فالمطففون همازون لمازون يزنون الناس بموازين غير الميزان الذي يوزن به المسلم (التقوى) وذلك تطفيف ، فلكل شيء وفاء وتطفيف

(١) الكشاف ٤/٢٣٣ .

كما بينت السنة المطهرة ، وذلك من فوائد إشارة التخصيص بعد النعيم في مطلع السورة وتوابعه كما بيناه بكلام أهل العلم .

ودلالة الآيات لا تمنع من إجرائها على المطففين ، كما لا تمنع أيضا من إجرائها على الكافرين ، ولا ينقض ذلك سبب النزول ، فهذه طريقة الذكر الحكيم تتقلب عليه العصور ، ويكتنز هو تقلبات العصور ، وبالنظر إلى سبب النزول تكون الآيات دالة على أن المطففين يضعون أنفسهم ـ بجرائمهم ـ والكافرين في قرن واحد ، أن المطفف يسخر من المؤمن حين يكتال منه ، ويتغامز عليه حين يمر به ، أن هذا قد استغفلته حين اكتال مني ، ويرجع المطفف بما ظن من الكسب والسخرية متلذذا بحكاياته ذلك إلى أهله ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ، لا يعون كيف تجمع الأموال ، وليس هذا افتئاتا على معاني القرآن فلا كنت حينئذ ، ولئن كان فعلى غير قصد ، وإنما يتأيد ذلك باستبصار سياق السورة الكريمة .

العلامة ابن عاشور يرى أن الآيات إلى قوله : ﴿ **وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ** ﴾ موصولة بقوله تعالى : ﴿ **ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ** ﴾ والآيات عنده من جملة القول الذي يقال يوم القيامة للفجار ، وهو يرجح ما أبصرناه من أن وصف كتاب الأبرار وثوابهم ، إنما جاء اقتضاء لوصف كتاب الفجار ومآلهم ، وقد انتصر ابن عاشور لمقالته تلك ، بأن الآيات ترتبط بقوله تعالى في آخره : ﴿ **فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ** ﴾ إذ يتعين أن يكون قوله : ﴿ **فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** . . .﴾ حكاية كلام يصدر في يوم القيامة وذلك لأن تعريف اليوم باللام ونصبه على الظرفية يقتضيان أنه يوم حاضر مؤقت به الفعل المتعلق هو به ، ولأن قوله : ﴿ **كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ** ﴾ ظاهر في أنه حكاية كون مضى ، وكذلك معطوفاته

من قوله : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ ـ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ ـ وَإِذَا رَأَوْهُمْ ﴾ فدل السياق على أن هذا الكلام حكاية قول ينادى به يوم القيامة من حضرة القدس على رءوس الأشهاد[1].

وما مضى من قوله : ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ إنما هو في مقام تقريع ولوم الفجار وإهانتهم ، وقد جاء كما مضى عقب العقوبة ، وجاءت العقوبة عقب آية جرت سنة القرآن على استخدامها في حق الكفار ، والأمر كما عرفت من التأويل ، أترى بعد ذلك أن التقريع واللوم يكون بغير ما كانوا يفعلون من التطفيف حسا أو معنى في كيل أو غيره في الدنيا؟ لا إخالك تراه متناسبا مع سياق السورة .

« وإصدار ذلك المقال يوم القيامة مستعمل في التنديد والتشميت كما اقتضته خلاصة من قوله : ﴿ فَٱلْيَوْمَ . . .﴾ إلى آخر السورة »[2].

وهو موصول بالمقال الأول ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهو بدوره موصول بقوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ الذي ينادي بدوره على قوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ﴾ وكأن هذه التراكيب معالم لتشارب آيات السورة من سياق واحد ، ويكون موقع قوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ . . .﴾ موقع بدل البعض من قوله : ﴿ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ وهو ما يطلق عليه أهل الفن كمال الاتصال ، وهذه الآيات تمهد لسياق سورة الانشقاق كما ذكرنا في موقع المطففين في الكتاب العزيز .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٠٩/٣٠ بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ٢١٠/٣٠ .

والمذكور كله في هذا القول يتظاهر في بيان تنقيص الكافرين للمؤمنين سواء كان بالضحك منهم ، أو التغامز عليهم ، أو التلذذ بذلك ، أو رميهم ـ وهم أهل الرشاد ـ بالضلال ، ويلحظ أنه بنى الجمل بصيغة المضارع دلالة على تكرر ذلك منهم وحدوثه والملحوظ أنه قيد الجمل جميعا بأداة الشرط المقيدة تحقق وقوع ما بعدها،نمط قوله:﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾ «وتكرير فعل ﴿ ٱنقَلَبُوٓاْ ﴾ بقوله : ﴿ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ من النسج الجزل في الكلام ، كان يكفي أن يقول ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم فكهوا ، أو إذا انقلبوا إلى أهلهم كانوا فكهين . وذلك لما في إعادة الفعل من زيادة تقرير معناه في ذهن السامع ، لأنه مما ينبغي الاعتناء به ، ولزيادة تقرير ما في الفعل من إفادة التجدد حتى يكون فيه استحضار الحالة»[1] . على أني أحس فوق ذلك أن في تكرار الفعل إلماعا إلى خسرانهم بتنقيص المؤمنين بما يفيده ، فعل انقلب من الرجوع والتردي ، وهو دال على الخسران ، وهو غير سياق الانشقاق ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴾ وقد تهكم القرآن الكريم بهم في قوله : ﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴾ لأن من شأن الحفاظ المرسلين الحرص على المرسلين إليهم ، وليس هؤلاء المجرمون حفاظا ولا مرسلين ، وهي مهاد وفرش للآيات الواردة بعد ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ...﴾ ومجيء اليوم بالتعريف إشارة إلى ذكره السابق ، ونور علاقته يحدث دبيبا خفيا في نسيج السورة ، ليعقد بقوله : ﴿ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وقد جاء الأول بلام التوقيت ، وجاء الناس بلام التعريف كأنه قد وقع ، وذلك يصور رحلة سياق السورة الكريمة،والآيات من قوله:﴿ وَمَآ أُرۡسِلُواْ ﴾ تتجه نحو المطلع بذم المطففين ، الذين وصفتهم السورة بالفجور وبالتكذيب

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢١٥ .

وبالإجرام وتقلب ما حكته من تنقيص المطففين للمؤمنين ، وهو تطفيف معنوي ولا ريب أن اليوم المذكور هو يوم القيامة ، لا اليوم الحاضر حين نزول الآية ، يستظهر ذلك باستبصار السياق السابق على الآية الكريمة ، وترى في اختتام السورة التعادل بين العمل والجزاء ، أرأيت كان الكفار يضحكون من الذين آمنوا ـ ويوم القيامة يضحك المؤمنون من الكفار ، وهم على الأرائك إلماع إلى العلو والارتفاع وشرف المكانة حتى في البيان جاءت الآية على نسيج ما مضى حكايته . فجاءت في الآيتين باستبدال الفاعلين والمفعول ، فكأن الكفار فاعلون في الآية الأولى وكأن ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ مفعولا بهم ، وجاءت الآية الثانية قالبة هذا النظام ولئن كان تقديم ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في الآية الأولى إسراعا في البيان عن إساءتهم فتقديم ﴿ مِنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾ في عكسها للاهتمام بالمضحوك منهم تعجيلا لإهانتهم عند سماع هذا التقريع[1] كرامة نفس للمؤمنين وقرة عين لهم ، وتظاهر الأسلوب على ذمهم ظاهر قاهر ، لذا خرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وأظهر حيث يجيء الإضمار بيانا لذمهم وإمعانا في إهانتهم ، المهم أنك ترى السورة تختتم بالبيان عن ذم المطففين حسبما أبصرناه وتنقيصهم ، كما كانوا يستمرئون التطفيف في كل شيء لا سيما في الميزان والمكيال ، وفي ذلك رد للمقطع على المطلع ، ولعجز السورة على صدرها شأن كثير من الذكر الحكيم .

وجاء قوله : ﴿ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾ وهو (فذلكة) لما حكي من اعتداء المشركين على المؤمنين ، وما ترتب عليه من الجزاء يوم القيامة ، فالمعنى : فقد جوزى الكفار بما كانوا يفعلون ، وهذا من تمام

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢١٥ .

النداء الذي يعلن به يوم القيامة ، والاستفهام بـ (هل) تقريري وتعجيب من عدم إفلاتهم منه بعد دهور . . . وفي هذه الجملة محسن براعة المقطع لأنها جامع لما اشتملت عليه السورة[1] ، كأن اسم موصول وصلته في نهاية السورة إجمالا لما ذكر من أول السورة إلى هنا من التطفيف وغيره .

والآية فوق ذلك تمهد لسورة الانشقاق التي تحكى ثواب أصحاب اليمين وعقاب أصحاب الشمال ، وتتشارب من سياق سورة المطففين ، ولا تجد كهذه الآية التي جاءت بها السورة في الذكر الحكيم .

والملحوظ : أنها بنيت على تصديرها بالاستفهام التعجبي ، كقوله : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴾ .

* * *

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٢١٥، ٢١٦ .